# القاعدة السادسة

## الإعداد للطاعة ومحاسبة النفس عليها

واعلم أن الاستعداد للطاعة ومحاسبة النفس عليها وظيفتان متباينتان، لكنهما متداخلتان أي يتعاقبان ويتوارد أحدهما على الآخر.

أما الإعداد للعمل فهو علامة التوفيق وأمارة الصدق في القصد، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً** ﴾ [التوبة: ٤٦]، والطاعة لابد أن يُمَهَّدَ لها بوظائف شرعية كثيرة حتى تؤتي أكلها ويُجتني جَناها، وخاصة في ظهر رمضان حيث تكون الأعمال ذات فضل وثواب وشرف مضاعف لفضل الزمان.

فصلاة الجماعة لابد أن تسبق بإحسان الوضوء ونية صادقة حسنة في تحصيل الأجر وزيارة الله عزَّ وجلَّ في بيته وتعظيم أمره والبدار في تلبية ندائه (حي على الصلاة) والمسارعة في سماع خطابه والالتذاذ بمناجاته ولقائه.

obeikandl.com

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تَضْعُفُ صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يُحْدِث، تقول: اللَّهم صل عليه، اللَّهُم ارحمه، ولا يزال في الصلاة ما انتظر الصلاة» متفقٌ عليه.

ويحتفُّ بهذا الإعداد في التطهر والنيات إعدادٌ نفسي للقْيا الله عزَّ وجلَّ، ويكون ذلك بأمور: منها: ترْداد الأذكار الشرعية الواردة عند الخروج من البيت والمشي إلى المسجد فإنها مهمة في حضور القلب ومنها عدم فعل ما يتنافى مع الوقار والطمأنينة أثناء المشي إلى المسجد كتشبيك الأصابع وكثرة التلفت والتطلع إلى المارة وزخارف وزهرة الدنيا (وخاصة في هذه العصور) وعدم الإسراع والسعي، وذلك أن المشي إلى الصلاة جزء هام ممهد للخشوع في الصلاة، لذا

قال النبي ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة» متفقٌ عليه، وفي روايةٍ لمسلم: «فإن أحدكم إذا كان يَعْمَدُ إلى الصلاة فهو في صلاة» ولا ينبغي أن يكثر من الضحك قبل الصلاة وبعدها فإنه يذهب لذة الخشوع ويُقسِّي القلب ويحول بينه وبين الشعور بثمرة الطاعة.

وعند دخول المسجد لابد أن يدخله معظمًا مظهراً الوجل من مهابة المكان وصاحبه، فإن المساجد منازل الرحمة ومهابط البركات، لذا شرع أن يقول الداخل إلى أي مسجد: **أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم.**

فإذا دخل المسجد شرع في السنة الراتبة أو النافلة ريثما يقام للصلاة، وأهمية هذه السنة أو النافلة تكمن في تهيئتها وتمهيدها للفريضة لكمال الحضور فيها.

ثم يشرع في صلاة الفريضة مستحضراً ما سنذكره عن وسائل تحصيل لذة الطاعة في الصلاة.

ومن جنس هذا الاستعداد الاستعدادُ لصلاة التراويح فإنها من أعظم العبادات في ليالي رمضان، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»، وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: صمنا مع رسول الله ﷺ رمضان فلم يقم بنا شيئًا من الشهر حتى بقي سبعٌ فقام بنا حتى ذهب ثُلث الليل، فلما كانت السادسة لم يقم بنا، فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر الليل، فقلت: يا رسول الله، لو نفلتنا قيام هذه الليلة (أي قمت بنا الليلة كلها)، قال: فقال: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسِبَ له قيام الليلة» رواه أبو داود بإسناد صحيح.

ويشكو كثير من المواظبين على قيام الليل في رمضان من عدم لمسهم لثمرة هذه الصلاة مع اعتقادهم بأهميتها وسعيهم لبلوغ الغاية من أدائها.

والحق أن هذه الصلاة المهمة كغيرها تحتاج إلى إعداد وتهيئة، فيلزم الراغب في الانتفاع من صلاة التراويح إقلال

الطعام للغاية، ويحبَّذ أن يأتي المسجد وفي بطنه مسٌّ من جوعٍ، فإنه مثمر جداً في حضور القلب، وينبغي عليه أن يتطهر جيداً ويلبس أحسن الثياب ويأتي الصلاة مبكراً، وقبيح جداً أن تفوته صلاة العشاء، فهذا دليل الحرمان وعدم الفقه في الدين، فإن صلاة العشاء في جماعة تعدل قيام نصف ليلة كما صح في الحديث، فوق كونها فريضة، والله عزَّ وجلَّ يقول في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افْتَرضْتُهُ عليهِ**» رواه البخاري.

ثم يستحضر القدوم على الله والوفادة إليه وانتهاز فرصة التعرض لرحمته ومغفرته والعتق من النار، ويذهب إلى المسجد يدفعه الشوق والرغبة في الفضل، ويكدره الحياء من الله وخوف الرد والإعراض، ويطلب مساجد أهل السنة حتى يُوهَبَ للصالحين إن كان من غير المقبولين ثم يستحضر ما ذكرناه من وظائف عند الدخول في الصلاة وأثنائها.

أما محاسبة النفس على الطاعات فهذا من أنفع

الوظائف التي يقوم بها العابدون في شهر رمضان، والأصل أن المحاسبة وظيفة لازمة للسالك طريق الآخرة، ولكنها تتأكد وتزداد في هذا الشهر.

**والمحاسبة معناها: (فَحْصُ الطاعة ظاهراً وباطناً، وأولاً وآخراً، بحثاً عن الثمرة ليعرف مأتاها فيحفظَهُ، وقدرَها فينميه، ووصولاً للنقص سابقاً، ليتداركه لاحقاً).**

والمحاسبة تكون قبل العمل وأثناءه وبعده.

أما قبله فبالاستعداد له واستحضار ماقصّر فيه حتى يتلافاه، وأثناءه بمراقبة العمل ظاهراً وباطنًا أوله وآخره، والمحاسبة بعد العمل بإعادة ذلك كله.

وهذه المحاسبة إذا واظب عليها المرء صارت مسلكًا لا يحتاج إلى تكلّف ومعالجة وسيجد غِبَّ هذه المحاسبة وثمرتها تزايداً في مقام الإحسان الذي سعى إليه كل السالكون وهي أن يعبد الله كأنه يراه.

ومثل هذه المحاسبة ينبغي أن تكون في الخفاء، يحاور

نفسه وهواه ويعالج أي قصور بِلَوْم نفسه وتقريعها وعقابها على كسلها وخمولها.

ولا يُنصح بمداومة الاعتماد على أوراد المحاسبة الشائعة، وقد اختلف فيها الناس على طرفين، فمنهم من جعلها وسيلة دائمة للتربية، وطريقة ناجعه لتقويم النفس، ومنهم من بالغ ومنع منها مطلقًا واصفًا إياها بالبدعية، والحق التوسط، نعم هي وسيلة لم ترد عن سلف هذه الأمة لكن تشهد لها نظائر في الشرع مثل عد التسبيح بالحصى ونحو ذلك مما ثبت عن الصحابة والتابعين، ثم إننا لا نقول بجواز الاعتماد على تلك الأوراد في كل الأحايين بل ننصح بها في بداية السير وأيضًا لا نُلزم بها أحدًا، ولكن من عوّل عليها في بداية سيره لكون نفسه متمردةً شمُوسًا فنرجو ألا يكون ثمة حرج، شرط عدم توالي اعتماده عليها.

والصواب تنشئة النفس على دوام المحاسبة الذاتية والمراقبة الشخصية، وتعويدها على العقاب عند الزلل، فإن هذا من شأنه أن ينقّي العبادة من أي حافز خارجي دخيل

على النية الصالحة كرغبة في تسويد ورقة المحاسبة أو نحو ذلك . وقال الحفظي :

شارطِ النفس وراقبْ لا تكن مثل البهائمْ
ثم حاسبها وعاتبْ وعلى هذا فلازمْ
ثم جاهدها وعاقبْ هكذا فعل الأكارمْ
لم يزالوا في سِجالِ للنّفوس محاربينا
فاز من قام الليالي بصلاة الخاشعينا

obeikandl.com

# القاعدة السابعة

## مطالعة أحكام الصوم وما يتعلق بشهر رمضان

وهذا من آكد الواجبات، فمفتاح السعادة ومنشور الولاية مرهون بالعلم الصحيح النافع الممهّد للعمل الصالح، وليس ثمة عمل صالح بدون علم نافع.

والعلم النافع ينادي على صالح العمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وكما وجب على المصلي تعلم ما يقيم به صلاته وعلى المزكّي ما يخرج به زكاته وهلم جرا . . فيقبح قبحًا شرعًا أن يتعرض الناس لأجلّ مواسم الطاعات وهو مفلس من طرائق المنافسة فقيرًا في زاد المعاملة.

ولابد من معرفة أحكام الصوم وأعذاره وأركانه ومبطلاته ومباحاته وأحكام صلاة التراويح والاعتكاف، وفي حق المرأة أن تتعلم أحكام الصوم في حق الحائض والمستحاضة والنفساء والصوم في حق الحامل والمرضع.

وننصح بالكتب الآتية في تحصيل أحكام الصيام منها

مع عدم الامتناع عن سؤال أهل العلم ومراجعتهم عند المشكلات:

١) «**زاد المعاد في هدي خير العباد**» لابن القيم (باب: هديه ﷺ في الصوم).

٢) «**صفوة الكلام في مسالك الصيام**» لأبي إدريس محمد عبد الفتاح (رسالة مختصرة).

٣) «**فقه السنة**» للشيخ سيد سابق مع تمام المنة في التعليق على فقه السنة للشيخ الألباني.

وتجنب أيها الأريب التصدر للفتيا والتبرع بالإفادات حال كونك لست من أهل هذا الشأن، فإنه مشأمة لك ومظلمة لغيرك.

ومما تتأكد مطالعته ما يتعلق بفقه المعاملة مع الرب وما ينبغي فعله في المواسم، وننصح بكتاب «لطائف المعارف» للحافظ ابن رجب رحمه الله.

obeikandl.com

# القاعدة الثامنة

## إعداد النفس لتذوق عبادة الصبر

قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ [فصلت: ٣٥].

فبعض الخليقة تجعل من مواسم الطاعة مرتعًا لنيل اللذات بكل أنواعها، وهو مرتع وخيم على صاحبه، إذ به يخرج من الشهر كما دخل بل أفسد، وتزداد المسافة بينه وبين حقيقة قصد الآخرة، وتتكاثف غيوم الشهوات حائلة بينه وبين الوصول إلى الله.

وإذا كان شهر رمضان هو شهر الصوم والصبر فما أحرانا أن نتذوق حقيقة الصبر لنتذوق حقيقة الصوم.

وأمامك أيها الساعي إلى الخيرات في هذا الشهر صبر عن المحارم، وصبر على الطاعات، ومع ذلك كله صبر على كل بلية تنالك.

وأنواع الصبر هذه هي أوسمة الولاية وقلادات الإمامة في الدين.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنما تُنال الإمامةُ في الدين بالصبر واليقين، واستدل بقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤) ﴾ [ السجدة: ٢٤ ].

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكرمة وأنه من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة، وإنما كان صعبًا على العامة لأن العامي مبتدئ في الطريق وليس له دربة في السلوك وليس تهذيب المرتاض بقطع المنازل، فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء وعزّ عليه وجدان الصبر لأنه ليس في أهل الرياضة فيكون مستوطنًا للصبر، ولا من أهل المحبة فيلتذ بالبلاد في رضا محبوبه ...) اهـ.

مما نقلته لك تعلم أيها الحريص على النجاة أن شهر

رمضان ميدانك الرحب لتمارس رياضة الصبر وأنت مُعانٌ في كل فجٍ.

فعين الله تصنعك، والأبالسة في أصفادها ترمقك، ونفسك ستراها إلى الخير وثابة وعن الشر هيّابة، فلم يبق إلا أن تعالج الخطرات والوساوس الواجات في حنايا قلبك، ليست شعري ما أشبه قلبك بالمريض في غرفة العناية المركزة، إنه محروم من كل طعام يفسد دورة علاجه، بل محروم من مخاطبة أقرب الأقربين لتتفرغ أجهزة جسمه للانتعاش واسترداد العافية، ثم إنه يتنفس هواءً معقّمًا خاليًا من كل تلوث، وتدخل في شرايينه دماء نقية لتمده بأسباب القوة، ويقاس نبضه ودرجة حرارته كل حين ليتأكد الطبيب من تحسن وظائف جسمه، فما أحرى هذا القلب السقيم الذي أوبقته أوزاره، وتعطن بالشهوات، وتلوث بالشبهات، وترهل بمرور الشهور والدهور دون تزكية وتربية؛ ما أحراه أن يدخل غرفة العناية المركزية في شهر رمضان، فتكون كل إمدادات قوته مادة التقوى وإكسير المحبة لله ورسوله ﷺ وطاعتهما.

فلتصدر مرسومًا على نفسك أن تلزم جناب الحشمة في هذا الشهر أمام شهوة البطن وغيره، فإن أعلنت عليك التمرد فلا تتردد في فرض الأحكام الاستثنائية وأصدر قرارًا باعتقال هذه النفس الناشز وأدخلها سجن الإرادة حتى تنقاد لأوامرك إذا صدرت، فإن ازداد تمردها وتجرأت في ثورتها فألهب ظهرها بسياط العزيمة وعنفها على مخالفتها أمرك وعصيانها إرادتك، فإن أبت إلا الشرود فلوّح لها بحكم الإعدام وأنها ليست عليك بعزيزة، فإن تمنعت إدلالاً وطمعًا في عطفك فلابد من تنفيذ حكم الإعدام في ميدان العشر الأواخر بحبسها في معتكف التهذيب حتى تتلاشى تلك النفس المتمردة وتفنى، وتتولد في تلك الليالي والأيام نفس جديدة وادعة مطمئنة تلين لك عند الطاعات إذا أمرتها، وتثور عليك عند المعاصي إذا راوَدْتها، فقد وُلدَت ولادة شرعية في مكان وزمان طاهرين ونشأت وتربّت في كنف الصالحين، فلن تراها بعد ذلك إلا على الخير.

إنها ولادةٌ لنفس ذات إمامة في الدين، تنشأت على مهد الولاية، وترقّت في سلك الرهبوت والتبتل.

# القاعدة التاسعة

## كيفية تحصيل حلاوة الطاعات

أما كون الطاعة ذات حلاوة فيدل له قوله ﷺ «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ ﷺ رسولاً»(١)، وقوله ﷺ: «ثلاثة من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٢)، ولما نهى الرسول ﷺ أصحابه عن الوصال قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم، إني أُطعم وأُسقى»(٣)، وفي لفظ: «إني أظل عند ربي يُطعمني ويَسقيني»(٤)، وفي لفظ: «إن لي مُطعمًا وساقيًا يسقيني»(٥)،

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) رواه البخاريّ ومسلم.

(٣)، (٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه البخاري وأبو داود.

قال ابن القيم: قد غَلُظَ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، ثم قال: والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم. اهـ.

واعلم أولاً أيها السالك في مرضاة إلهك أن كلمات القوم في هذا الباب رسوم، وإرشاداتهم في هذا الباب عموم، ولا تبقى إلا الحقيقة الثابتة في نفسها، وهذه لا ينالها إلا من أناله الله إياها، ومن ذاق عرف، فكن من هذا على ذكر، لأننا سنسوق إليك كلاماً لا يفهمه غليظ الحجاب كثيف الدين، فإن استعصى عليك الفهم فلن نبادر إلى اتهام صلتك بالله، بل نقول أتمم قراءة الباب ونفذ ما سنوصيك به ثم أعد قراءة هذه السطور فإن وجدت الأمر كما وصفنا فاحمد الله الذي أذاقك طعم الإيمان وحلاوة الطاعة.

بدءاً يجب أن تعلم (أن الفكر لا يُحَدُّ واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن، فإن لم تشغلها بالعظائم شُغلتْ بالصغائر، وإن لم تُعملها في الخير عملتْ في الشر.

إن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين ونفوراً عن المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق وروّضها وسُسها على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة، علّمها التحليق تكره الإسفاف، عرِّفها العزة تنفر من الذل، أَذِقْها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة)[١].

ودوماً نلح على علو الهمة باعتبارها عنصراً جوهرياً في أي سعي عظيم، وأي سعي أعظم من سعي الآخرة، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)** ﴾ [الإسراء: ١٩].

ثم اعلم – علمت كل خير – أن حلاوة الطاعة ملاكها في جمع القلب والهم والسر على الله ويفسره ابن القيم قائلاً: هو عكوف القلب بكليته على الله عزَّ وجلَّ، لا يلتفت عنه يمنةً ولا يسرةً، فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع

(١) «لعبد الوهاب عزام عن الرقائق».

اتصل اشتياق صاحبها وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه .. ثم يقول: فلله همةُ نفسٍ قطعت جميع الأكوان وسارت فما ألقت عصا السير إلا بين يدي الرحمن تبارك وتعالى فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه، فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠]، فسبحان من فاوت بين الخلق في هممهم حتى ترى بين الهمتين أبعد ما بين المشرقين والمغربين بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين، وتلك مواهب العزيز الحكيم: ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم يقول: وهكذا يجد لذة غامرة عند مناجاة ربه وأنسًا به وقربًا منه حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة ويتملقه تارة ويثني عليه تارة حتى يبقى القلب ناطقًا بقوله: ( أنت الله الذي لا إله إلا أنت ) من غير تكلف له بذلك بل يبقى هذا حالاً له ومقامًا كما قال النبي ﷺ:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[١]، وهكذا مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين يدي ربه فيسكن جأشه ويطمئن قلبه فيزداد لهجًا بالدعاء والسؤال، تذللاً لله الغني سبحانه، وإظهاراً لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه، لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله، بل هو المتفضل به ابتداءًا بلا سبب من العبد ولا توسط سؤاله وطلبه، بل قَدَّر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافًا بعز الربوبية وكمال غنى الرب وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئًا، ولكن ربه تعالى يحب أن يُسأل ويُرغب إليه ويطلب منه .. ثم قال: فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداءًا قبل أن يخلقه، مع علم الله سبحانه به

(١) رواه أحمد ومسلم.

وتقصيره وأن الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده أن يقدر له الفضل والإحسان، فإذا شاهد العبد ذلك اشتد سروره بربه وبمواقع فضله وإحسانه، وهذا فرح محمود غير مذموم قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [ يونس: ٥٨ ] اهـ.

وهذا كلام راقٍ يحتاج إلى تَرْدادٍ لفهمه، وتَجْوَالٍ في حنايا نظمه:

فأَدِمْ جرَّ الحبالِ تقطعِ الصخرَ الثَّخينا

ولكننا لا ندعك للرسوم والإشارات وعموم تلك العبارات، بل نَلِجُ إلى واقع عملي تكابد به حقائق الخدمة، وتتجلى لك من ورائه دقائق علم السلوك، فتستغني – أيها النابه العابد – بالمثال الواحد عن ألف شاهد.

فهاك جملة من الطاعات التي يؤديها كل الناس، ولننظر كيف يجب أن تؤدي وتقام.

# ذكر الله عز وجل

قال الفيروزآبادي في القاموس: الذكر بالكسر الحفظ للشيء .. ومازال مني على ذُكر وذِكر أي تذكر.

وبهذا تعلم أن الذكر حقيقة في الحفظ والتذكر والاستحضار، واستخدم في الشرع بمعنى جريان اللسان بالثناء على الله وطلب المغفرة منه حتى صار حقيقة شرعية، غير أنه غُلّب من العامة على وظيفة اللسان، فأصبح لا يطلق الذكر إلا ويتبادر معنى تحرك اللسان بالأذكار، وشطح غلاة الصوفية فصاروا لا يفهمون من الذكر إلا مجالس الرقص والدفوف، وكل ذلك يتنافى مع كثير من إطلاقات القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فذكْرُ الله هنا بمعنى استحضار عظمته وحفظ مقامه وتذكّر جلاله وهيبته، يؤيده أنه عطف عليه الاستغفار وهو ذكر، فلو كان معنى ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ** ﴾ أي جري اللسان

بذكره لتكرر هكذا: ذكروا الله فذكروه، ولا يقال: إن قوله: ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا** ﴾ من قبيل عطف الخاص على العام، لأن هذا من باب التأكيد، والتأسيس أولى من التأكيد، فالمتجه عندنا أن ذكر الله ألزم صفة للمتقين فهم يستحضرون عظمته ويتذكرون أياديَه عليهم فيكون ذلك سببًا في معرفة جرم ذنوبهم فستغفرون.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧]، تجد أن الذكر هنا أيضًا بمعنى العلم، وإذا أجريت ما ذكرناه لك عن معنى الذكر هنا فهمت ضرورةً أن قوله: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** ﴾ أي أهل الخوف من الله والخاشعين له والمستحضرين لعظمته، وليس هؤلاء إلا العلماء لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

بل إن قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٣٥] فيه إشارة إلى ما قررناه، فشأن أهل الإيمان (الذين وردت الآية في سياق وصفهم) توجل قلوبهم بمجرد جريان خواطرهم به عزَّ وجلَّ عند سماع اسم

من أسمائه أو صفةً من صفاته أو أي شيء يشير إلى مقامه، ولو كان معنى الآية أن المؤمنين توجل قلوبهم بترداد ذكره وجريان اللسان لهجًا بالثناء عليه فليس في ذلك مزية، فمعظم الناس يوجلون عند ترداد الأذكار بحضور قلب، ولكن القليل هم الذين تتفاعل قلوبهم بمجرد ورود الخاطر عن الله.

إذا تقرر ذلك نعلم عندئذ أن ذكر الله عزَّ جلَّ يكون باستحضار عظمته في القلب وليس نوعًا مستقلاً بذاته، لأن جريان اللسان بالذكر دون حراك القلب ليس مقصوداً من الله عزَّ وجلَّ وتقدس، قال تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال ﷺ: «التقوى ههنا وأشار إلى صدره» رواه مسلم، وقال أيضًا ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» رواه مسلم.

وبهذا البيان ندرك أن وظيفة اللسان في الذكر يجب أن تحصّل حضور القلب، بتعظيم الله واستحضار هيبته وجلاله، فما هي الوسائل التي تحقق هذه الثمرة؟

# وسائل تحصيل حلاوة الذكر

أولاً: معرفة المقصود من الذكر وهو إجلال مقام الله والخوف منه وخشيته ومهابته وقَدْرُهُ حق قدره، وبهذا المعنى يكون الذكر مستحبًا على كل زمان ومكان يوجد فيه الإنسان.

ثانيًا: أن يلحظ الذاكر نعمة الله على الخليقة لنوالهم شرف ذكره وكرامة ورود كلماته على الخواطر وجريانها في الجوارح مع تلبسها بمعصيته وجحود آلائه ونعمائه.

ثالثًا: لزوم جناب الاحتشام عند ذكر الله باستحضار مراقبته واطلاعه، وكان بعض السلف إذا ذكر الله لم يمد رجليه، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٣٥] ووجل القلب خوفه من الله، قال أبو حيان في تفسيره: وقرأ ابن مسعود: فرقت، وقرأ أُبي: فزعت.

رابعًا: أن يستشعر ويستحضر معنى حديث: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[1] رواه البخاري

---

(١) ومعلوم أن هذه المعية: معية خاصة للذاكرين ولا تقتضي الحلولية كما يزعم الزاعمون وإلا ما اشترط للمعية شرطًا لحصولها، وهذا مجمع عليه بين السلف جمعًا بين هذه النصوص وبين النصوص المفيدة للعلو والاستواء على العرش، فافهم هذا المقام واطرح ما عداه تسلم وتغنم.

معلقًا بصيغة الجزم والبيهقي والحاكم، ولا يحولن عَطَنُ الفلاسفة والمتكلمين والمعطلة والجهمية بينك وبين جمال هذا المعنى وجلاله، فما دمت بنيت في ذهنك مقام الربوبية على الإثبات والتنزيه، فأمرُّ النصوص كما جاءت كما فعل السلف تنتفع ببركة تلك النصوص.

واعلم أن المدد من الله على قدر تقواك وصبرك، وحضور القلب على قدر استجماع الفكر في الذكر، والدليل قوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)** ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

خامسًا: عدم اليأس من تأخر الفتح، فمن أدمن قرع الباب يوشك أن يؤذن له، وملازمة الإلحاح والوقوف بالباب مع الإطراق بانكسار واختجال علامة التوفيق والقبول، تأمل قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ﴾ [التوبة: ١١٨] تجد أن المخلّف ممتحن في حقيقة الأمر: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)** ﴾ [آل عمران: ١٤١].

سادساً: يقول ابن القيم في الفوائد: من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعًا، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولاً حتى يُحِسَّ بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلبُ اللسانَ وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده. اهـ. ومثل هذا لا يحسنه إلا ابن القيم رحمه الله.

والمذهب عندنا هو الوسيلة الثنائية أي عدم الابتداء على غفلة بل يسكن الذاكر حتى يحضر القلب، وسبيله أن يستحضر نفسه واقفًا بباب الرحمة مطرقًا ينتظر الإذن بالدخول ويجول بقلبه الكسير حول معاني الرحمة والود والقبول، فذلك قمين أن يحضر به القلب.

أما لزوم كون .. الذكر من الوارد في السُّنَّة فهذا بَدَهي لا نطيل في تقريره، فمن سلك غير طريق محمَّد ﷺ أنىَّ له الوصول؟.

أما شهود معاني الذكر ومقاصده فهذا من أعظم أبواب حضور القلب والانتفاع بالذكر وخاصة إذا كانت من المعاني الراقية الرفيعة التي صيغت في حنايا سيد الذاكرين ﷺ.

وسنضرب مثالاً في كيفية التفكر والتدبر في الذكر ليكون كالشاهد على غيره من الأذكار، فمن أذكار الصباح والمساء التي يرددها المؤمن قوله ﷺ: «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده ربِّ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، ربِّ أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر» رواه مسلم.

فيستحضر ما ذكرناه آنفًا ثم يتدبر الكلمات مظهراً الفقر والاحتياج والمسكنة، ويجول بقلبه في ملك الله وملكوته، فيتحقق عنده حقائق النعم (أصبحنا)، ويبصر

عظيم منة الله إذْ منَّ عليه بالحياة فأصبح معافىً، مع أنه كان آيسًا من إدراك الصباح، كان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» رواه البخاري، وها هي رعاية الله تتداركه فيرسل لها روحها بعد توفيها، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر: ٤٢] ومع غمرة الفرحة بنعمة الله يتدارك نفسه بذكر المنعم حتى لا تضمحل رؤية المنعم في خضم الفرحة بالنعمة فينسب كل النعم بل كل هذا الملك إلى المتصرف الحقيقي فيه (وأصبح الملك لله) ومع نسبة النعمة لصاحبها والبوء لمسديها لا ينبغي أن ينسى العبد شكر ربه والثناء عليه فيحمده (والحمد لله)، ثم يشهد شهادة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وسر ذلك: الإقرار بالألوهية بعد الإقرار بالربوبية، فالربوبية هي التصرف والتدبير والمُلْك وهي متضمَّنة في قوله: (أصبحنا وأصبح الملك لله) والألوهية هي إثبات استحقاق الله عزَّ وجلَّ بالألوهية أي كونه إلهًا يعبد ولا يعبد أحدٌ

معه، ثم يكرر بعض معاني الربوبية الأخرى ويحوم حول بعض أسمائه عزَّ وجلَّ وصفاته ليصُقل قلبه بتوحيد الأسماء والصفات فهو سبحانه ( له المُلْك ) أي أنه المَلِكُ، ( وله الحمد ) أي المحمود الحميد.

ثم يعترف بشمول قدرة الله لكل الأشياء، والشيء أعم لفظة في اللغة لشمولها الموجود والمعدوم والكبير والصغير والعظيم والحقير، ثم يبدأ بعد جولة الثناء على الله، هذه الجولة التي لابد أن يشعر فيها بتحليق روحه بين تلك المعاني الراقية، يبدأ في ذلة ومسكنة ممارسة العبودية في أحلى صورها وهي الدعاء، الذي هو مخ العبادة، فيبدأ دعاءه المتناسب مع الزمان، فيسأل ربه خير هذا اليوم وخير ما بعده وكلمة ( خير ) مفرد مضاف، فيفيد العموم كما قال الأصوليون، فهو سؤال لكل خير ولأي خير أن يناله بفضل من الله ورحمة، ومقتضى سؤال الخير ألا يُبتلى بالشر لأن الشر ليس بخير، ولكنه يؤكد الاستعاذة من الشر بترداد ألفاظها إمعانًا في التذلل وتأكيداً في المسألة وإلحاحًا في الرغبة.

ولما كان الذكر يستقبل يومًا جديداً أو ليلة جديدة

فإنه يحتاج إلى كل معونة على كل عجز يُقعده عن الانتفاع بيومه وليله، وعجز الإنسان إما أن يكون قدريًا أي لا حيلة له في دفعه، أو كسبيًا، فهو يستعيذ من العجز القدري وهو (سوء الكِبَر) وذلك بأن يبارك له ربه في جوارحه وقوته ونشاطه، ومن العجز الكسبي وهو (الكسل) وذلك بأن يُلهم النشاط وكراهية الدعة والخمول.

ولما كان الذاكر في جولة قلبية مع تلك المعاني المناسبة لزمان اليوم والليلة فإنه يفيق بعد تلك الجولة على حقيقة سيره إلى الله وأن غاية مراده من الذكر والاستعاذة من الشرور أن ينجو حقيقة بدخول الجنة والزحزحة عن النار فيتدارك لسانه هذا الذكر الذي دندن حوله الرسول ﷺ ومعاذ بن جبل فيردد صدى دندنتهما في الكون بترنيمه السالكين الأبدية (رب أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر).

وفي ذكر القبر في ختام الدعاء والذكر سر عجيب، فإنه بدأ ذكره بالتحليق في أرجاء ملك الله الواسع (أصبحنا وأصبح الملك لله) ثم إنه استشعر سعة الكون بشموله قدرته

عزَّ وجلَّ وتصرفه فيه، وهو خليق أن يجعله مبهوراً بهذه السعة، فيأتي ذكر القبر ليرده عن هذا التوسع والشعور بالرحابة، ويذكّرَ الضيق الذي ينتظره في القبر وكذا بأهواله وخطوبه.

فياله من ذكر يصعد بالإنسان إلى أعلى عليين ثم ينزل به إلى أسفل سافلين، فإذا هو بعد الذكر قد تجلت له الحقائق ورأى الدنيا وملك الله من زاوية السعة ومن زاوية الضيق فتتضاءل نفسه أمام هذا الإعجاز وتصغر ذاته في عمق هذه المعاني، وهذه هي أحلى فوائد الذكر، أن يجد الذاكر في نفسه قدرة على إدراك حقائق الأمور، فيرى ضآلة ذاته، وعظمة ربه، ويبصر تصرف المليك في الكون والخليقة.

سابعًا: أفضل أحوال الذكر: يفضل الذكر في الخلوات عنه في الجلوات أي على مشهد من الناس، قال ﷺ في السبعة الذين سيظلهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». رواه البخاري، والخلوة يجب أن تكون بمنأى عن أعين الناس وعن جلبتهم وضوضائهم، لذا يفضل في الخلوة الهدوء التام والظلام وعدم الإزعاج وقطع لحظات المناجاة، ولا يشرع اتخاذ الخلوات في الجبال والفيافي بما

يشبه الرهبنة كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية، بل الخلوة الشرعية تكون في المسجد بالاعتكاف أو في المنازل والبيوتات، ولا شرع الاعتزال واتخاذ الخلوة في شعب الجبال إلا زمان الفتن التي تعصف بالإيمان والمؤمنين، أما زمن الجهاد والدعوة والإصلاح فلا تشرع العزلة بحال على قول جمهور الفقهاء والمحدثين وأهل السلوك.

وثمة آداب أخرى في حق الذاكر يستحب له إتيانها منها لبس أحسن الثياب وتجديد الوضوء والتطيب واستقبال القبلة على الدوام، ودوام الإطراق، ولزوم الأدب في الجلوس، واستصحاب السواك واستعماله.

obeikandl.com

## وسائل تحصيل لذة الصوم

وهذا من أعجب الأسرار، ولم أجد أحداً تكلم فيها بما يشفي، والمقصود أيها السالك: إيقافك على أسرار العبادة وجمال الخدمة وشرف القيام بالأمر، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ومقتضى قيامك بأداء العبادة أن تجد ثمرتها، وثمرة العبادة تكليف شرعي، فمثلاً: يقول عن الصلاة: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي الصلاة الصحيحة الكاملة، ولكنه لم يتكلم عن لذة العبادة والمناجاة والخطاب وحلاوة القيام بتلك الصلاة وكذلك الصوم حين قال: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)**﴾ [البقرة: ١٨٣] فالتقوى أيضاً كالانتهاء عن الفحشاء والمنكر وكلاهما مأمورٌ به.

وسر عدم التعرض للذة العبادة وجعلها مقصوداً وغاية مباشرة أن هذه اللذة والحلاوة هي من صميم مقام الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» ولو جُعلت مقصوداً وغاية لَعَجَزَ جمهور المكلفين عن أن يحصّلوا هذه اللذة ليتأكدوا من

حصول ثمرة العبادة، وليأس كثير من السالكين حيث يجتهدون ولما يأتهم المدد، فكان تكليفهم بالقريب الملموس والسهل اليسير لأن علامات التقوى والانتهاء عن المنكر واضحة، أما باطن هذه الغايات وجوهرها فهو الالتذاذ بالخدمة والشعور بالنسبة (نسبة العبد لربه) كما قال ﷺ بعد رجوعه من الطائف وأذية أهلها له وإهانتهم لشخصه، قل: «إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي» وهذا من أجمل الألفاظ النبوية الجامعة الخارجة من مشكاة خليل رب العالمين، ولذلك كان سيد الاستغفار سيداً لما فيه من الشعور بالنسبة ولذة الخطاب: «أنت ربي .. خلقتني وأنا عبدك .. فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ومما زادني شرفًا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيًّا

وكذلك الصوم تتحصل اللذة فيه من الشعور بالنسبة والالتذاذ بالخدمة قال تعالى في الحديث القدسي: «**الصوم لي وأنا أجزي به** ...» هذه هي النسبة، وقال: «**ترك طعامه وشهوته من أجلي**» وهذه هي حقيقة الالتذاذ بالخدمة.

ولذلك كان يَبَس الشفاة من العطش، وقرقرة البطون

obeikandl.com

من الجوع: أهنأ ما لاقاه الصائمون وأَمْرَأ ما ظفر به أولئك الجياع العطشي.

فبينما هو يتألم - وقد تلوى من جوع البطن - يتوارد على فؤاده خاطرة: أن هذا الألم يصبر عليه تعظيماً لحق الله ومهابة لنظره واطلاعه فيرضى عن حاله ويشبع من رضا الله عنه ولا يطمع في أي نعمة تحول بينه وبين لذة هذا الألم.

لكنه سرعان ما يطأطئ منكسراً وجلاً، خائفاً لئلا يقبل الله منه فيتضافر ألم البطون مع ألم القلوب ويتعاظم هذا الألم حتى تتداركه عناية الله وإمداداته فيفيض عليه من جميل لطفه وإنعامه فيسكن هذان الألمان المتضافران وينقلبان حلاوة غامرة ولذة عامرة بل وشوقاً للقاء الله حتى تتم فرحته التي أخبر عنها النبي ﷺ: «وفرحة عند لقاء ربه».

وإذا تأملت هذه المعاني أدركت سر قوله ﷺ: «رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع» رواه ابن ماجه (صحيح الجامع).

وقوله ﷺ: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش» رواه الطبراني في الكبير وغيره (صحيح الجامع).

وربما ضربت كفًا على كف من اجتماع هذه

المتناقضت، ألم، ولذة، وجوع، وشِبَع، وعطش، وريٌّ، ولا يمنعّنك هذا العجب من ولوج هذا الطريق والسير فيه، فمن سلكه رأي من آيات ربه الكبرى.

فأحسن القصد، وولّد العزم، وتسلح بالهمة، وابدأ السير، وجِدَّ في الترَّحال، واطلب الراحة في العناء، وارض عن نفسك إذا كان مسعاها في المعالي، ولا تركن إلى غبن أهل الدنيا، ومنِّ نفسك بالفوز الربيح، وادّخر الثمن الغالي لسلعة الله «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

## وسائل تحصيل لذة الصلاة

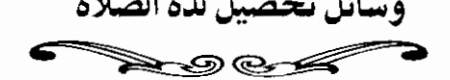

(اعلم أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست كلمات وهي:

(١) حضور القلب. (٢) التفهُّم. (٣) التعظيم.

(٤) الهيبة. (٥) الرجاء. (٦) الحياء.

فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاجَ في اكتسابها، أما التفصيل:

**فالأول:** حضور القلب، ونعني به أن يفرَّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلمٌ به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف القلب في الفكر عن غير ما هو فيه - وكان في قلبه ذكر لما هو فيه - ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب.

**والثاني:** هو التفهم لمعنى الكلام، وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون مع

معنى اللفظ؛ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم، وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ لا يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات ... وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تُفَهم أموراً؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة.

**والثالث:** التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم، إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما.

**والرابع:** وهو الهيبةُ فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسه لا تسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، والهيبة خوف مصدرها الإجلال.

**والخامس**: وهو الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكًا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا

يرجو مثوبته، والعبد ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته ثواب الله عزَّ وجلَّ كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عزَّ وجلَّ.

**السادس:** وهو الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصيرٍ وتوهم ذنب، ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

وأما أسباب هذه المعاني الستة: فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك. ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهِمَّة مصروفةٌ إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخر خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا

يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنَّن أن له سببًا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقويته.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه الذي هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها، أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئًا أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، ولذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله عزَّ وجلَّ وعظمته وهو من أصول الإيمان. فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه. والثانية حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوبًا، حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة

النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله، لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص ذلك من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عزَّ وجلَّ وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقينُ بوعده والمعرفةُ بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة.

وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عزَّ وجلَّ، ويقْوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخيلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع

العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزَّ وجلَّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقينًا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طُلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين، أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقينًا انتفاءُ الشك واستيلاؤها على القلب، وبقدر اليقين يخشع القلب، وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما ي جري بين يديه، ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة في المسجد وقد اجتمع الناس عليها، وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره، وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصُهم.

وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم

وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه أو ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩]، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقعَ نظر الله سبحانه القلوبُ دون ظاهر الحركات، ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يحشر الناس يوم القيامة على مثل هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة، ولقد صدق، فإنه يحشر كلٌّ على ما مات عليه، ويموت على ما عاش عليه، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه، فمن صفات القلوب تُصاغُ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، نسأل الله حُسن التوفيق بلطفه وكرمه.

## بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظمًا لله عزَّ وجلَّ وخائفًا منه وراجيًا له ومستحييًا من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة.

ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه. وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرًا خارجًا أو أمرًا في ذاته باطنًا، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سببًا للافتكار، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببًا للبعض الآخر.

ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل

لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي صلاتك في شغل المجاذبة، ومثاله: رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تهوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة، فقيل له: إن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها، فإن الذباب كلما ذُبَّ آب، ولأجله سمى ذبابًا، فكذلك الخواطر، وهذه الشهوات كثيرة وقلمّا يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد.

ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفوَ له لذة المناجاة في الصلاة، فإن مَنْ فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته.

وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في

الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عُضالاً، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدّثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحًا وآخر شيئًا.

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بِخَلّ، فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج من الخل لا محالة ولا يجتمعان.

## بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة

فنقول: حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها، أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنية.

فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمّر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين يُنادَون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبَك على هذا النداء فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبُشرى والفوز يوم القضاء. ولذلك قال ﷺ: «أرحنا بها يا بلال» (١) أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها ﷺ.

---

(١) رواه الدارقطني في «العلل» من حديث بلال ونحوه عند أبي داود عن رجل من الصحابة لم يسمه بإسناد صحيح.

obeikandl.com

وأما الطهارةُ فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظَرفُك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافُك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قِشرُك الأدنى فلا تغفل عن لُبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرّطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهّر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلْق، فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطّلع عليها إلا ربك عزَّ وجلَّ! فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما ويستكين تحت الخَجْلة قلبُك، وتقوم بين يدي الله عزَّ وجلَّ قيام العبد المجرم المسيئ الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما استقبال القبلة فهو صرفُ ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عزَّ وجلَّ ليس مطلوبًا منك؟ هيهات، فلا مطلوب سواه، وإنما هذه الظواهر تحريكات البواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عزَّ وجلَّ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

وأما الاعتدال قائمًا فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مُطْرِقًا مُطأْطِئًا مُنكَّسًا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهًا على إلزام القلب التواضعِ والتذلل والتبرّي عن الترؤّس والتكبرّ، وليكن على ذكرك ههنا خَطَرُ القيام بين يدي الله عزَّ وجلَّ في هول المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عزَّ وجلَّ وهو مطَّلعٌ عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن

كنت تعجز عن معرفة قدْره جلّ جلالُه، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئَة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك خشوعًا عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدّعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدًا من عباده؟ أو تخشين الناس ولاتخشينه وهو أحق أن يُخشى؟ ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ: «تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»(١)، وروي: «من أهلك».

وأما النية فاعزم على إجابة الله عزَّ وجلَّ في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفًا من عقابه

(١) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» وفي إسناده نظر.

وطلبًا للقربة منه، متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك، وعظّم في نفسك قدر مناجاته وانظر مَن تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف.

وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبُك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقًا كما شهد على المنافقين في قولهم: إنه ﷺ رسول الله. فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عزَّ وجلَّ فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك «الله أكبر» كلامًا باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحُسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه..

وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» وليس المراد بالوجه

الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه ليس هنالك، وإنما وَجْهُ القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض، فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق، متبعٌ للشهوات، أو مقبلٌ على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق.

ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقًا، وإذا قلت: «حنيفًا مسلمًا» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذبًا، فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال، وإذا قلت: «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف: ١١٠] نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس، وكن حذراً مشفقًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة

في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت: «محياي ومماتي لله» فاعلم أن هذا حال عبدٍ مفقودٍ لنفسه موجودٍ لسيده، وأنه إن صدر ممن رغبتُهُ في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائمًا للحال. وإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عزَّ وجلَّ حسداً لك على مناجاتك مع الله عزَّ وجلَّ وسجودك له، مع أنه لُعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحبه الله عزَّ وجلَّ لا بمجرد قولك، فإن من قصده سَبُعٌ أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول، فليقترن

قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عزَّ وجلَّ عن شر الشيطان.

واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ.

فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها، فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره، وهي درجات أصحاب اليمين، ورجل سبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه.

ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلِّم القلب، والمقرَّبون لسانُهم ترجمانٌ يتْبَع القلبَ ولا يتْبَعُه القلبُ. وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فَأْنوِ به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه، فلا جرم كان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من

الله، ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخَّر من الله عز وجلَّ ففي تسميته وتحميده نقصانٌ بقدر التفاته إلى غير الله تعالى، فإذا قلت: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك، ثم استَثِرْ من قلبك التعظيم والخوف بقولك: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه ثم جدد الإخلاص بقولك: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك: ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين، ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقًا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ الذي يسوقنا

إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك وزده شرحًا وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل: ﴿آمين﴾ فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون منالذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبيُّ ﷺ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى، حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدَّني عبدي، وقال مرة: فوض إليَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال هذا لعبدي ولعبدي ماسأل» رواه مسلم، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته

فناهيك بذلك غنيمة، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور - كما سيأتي الكلام على تلاوة القرآن - فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه، ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد؛ والخوف حق الوعيد؛ والعزم حق الأمر والنهي؛ والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق إخبار الأنبياء.

ورُوي أن زُرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨)﴾ [المدثر: ٨] خر ميتًا[١]، وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)﴾ [الإنشقاق: ١] اضطرب حتى تضطرب أوصاله، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر، والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات، فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً، ثم يراعي الهيبة في القراءة، فيرتل ولا يسرد فإن

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٥٨) وفي سنده عون بن ذكوان، قال الدراقطني: متروك.

ذلك أيسر للتأمل، ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد.

كان النخعي إذا مر بمثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ** ﴾ [المؤمنون: ٩١] يخفض صوته كالمستحيي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به(١) وروي أنه يقال لقارىء القرآن: «إقرأ وارْق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا»(٢)، وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عزَّ وجلَّ على نعت واحد من الحضور قال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ مقبل على المصلي ما يلتفت»، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة، فإذا التفت إلى غيره فذكّره باطلاع الله عليه ويقبح التهاون بالمناجَى عند غفلة المناجي ليعود إليه، وألزِم لخشوع القلب، فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع.

---

(١) مثل هذا يحمل على الصلاة انفراداً أما الجماعة فالمنبغي وصول الصوت إلى المأموم لعدم ورود السنة بخلاف ذلك.

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسنٌ صحيح.

وكان الصدّيق رضي الله عنه في صلاته كأنه وَتِدٌ، وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عُودٌ، وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عزَّ وجلَّ خاشعًا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثًا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عزَّ وجلَّ وعن اطلاعه على سره وضميره، وقال عكرمة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)** ﴾ [ الشعراء: ٢١٨، ٢١٩ ] قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه.

وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرًا بعفو الله عزَّ وجلَّ من عقابه بتجديد النية ومتبعًا سنة نبيه ﷺ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعًا بركوعك، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذُلَّكَ وعزَّ مولاك واتّضاعك وعُلُوَّ ربك.

وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار، ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: «سمع الله لِمَنْ حمده» أي أجاب لمن شكره، ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: «ربنا لك الحمد» وتكثّر الحمد بقولك: «ملء السموات وملء الأرض» ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكّن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدلُّ على الذل.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت، وإليه تعود، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل: «سبحان ربي الأعلى» وأكده بالتكرار فإن الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدّق رجاءَك في رحمة الله فإن

obeikandi.com

رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبَطَرَ فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً: «رب اغفر لي رب اغفر لي» ثم أكد التواضع بالتكرار فعُدْ إلى السجود ثانياً كذلك.

وأما التشهد فإذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ما تدلي من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله، وكذلك الملك لله وهو معنى «التحيات»[1]، وأحضر في قلبك النبيَّ ﷺ وشخصه الكريم وقل: «سلامٌ عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وليصدُق أَمَلُك في أنه يبلُغُه ويردُّ عليك ما هو أوفى منه، ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تَأْمُلُ أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين، ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها.

ثم ادعُ في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين.

---

(١) قال في القاموس: التحية .. المُلك.

واقصد عند التسليم السلامَ على الملائكة والحاضرين وانْوِ ختم الصلاة به. واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها، ثم أَشْعر قلبك الوجلَ والحياء من التقصير في الصلاة، وخَفْ ألا تُقبل صلاتُك وأن تكون ممقوتًابذنب ظاهر أو باطن فتردَّ صلاتك في وجهك، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله.

كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تُعرف عليه كآبة الصلاة. وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض، فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٢] .. ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٩] .. ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [المعارج:٢٣] والذين يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي يُسِّر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر.

وأما صلاة الغافلين فهي مَخْطَرة(١) إلا أن يتغمده الله برحمته، والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عزَّ وجلَّ وأداؤها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سببٌ لحصول أنوارٍ في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة، فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عزَّ وجلَّ بالسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** (١٩) ﴾ [العلق: ١٩] وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة والجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء

---

(١) أي مكان خطر، كمَسْبَعَة أي أرض بها سباع.

obeikandi.com

بمثاله، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها.

ويختلف أيضاً بألوان المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة.

ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى، وأشدّها مناسبة الهمة، فإذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف، ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى إلا في المرائي الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخَبَث متراكم الصدأ على مَصَبَ الهداية؛ تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء، ولو كان للطفل تمييزٌ ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات

والأرض، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده، والمقصود أن كل ذلك لا يحصل إلا بالخشوع في الصلاة ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون:١، ٢] فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة هي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضًا فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)﴾ [المؤمنون:٩] ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون:١٠، ١١] فوصفهم بالفلاح أولاً وبوراثة الفردوس آخرًا، وأما هذرمة اللسان مع غفلة القلب فلا تنتهي إلى هذا الجزاء، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ في أضدادهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ [المدثر:٤٢، ٤٣] فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه.

obeikandi.com

نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبدٍ مُصطفى )[١].

(١) «إحياء علوم الدين» بتصرف وإختصار ( / ١ ١٦١ - ١٧١ ).

obeikandl.com

## تحصيل لذة التلاوة وقراءة القرآن(١)

اعلم أن هذه اللذة لن تحصل إلا بتوافر عشرة آداب عند تلاوة القرآن الكريم هي: (فهم أصل الكلام. ثم التعظيم. ثم حضور القلب. ثم التدبر. ثم التفهم. ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبرّي).

**فالأول:** فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لَطَف بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن

(١) اعلم أن الغزالي رحمه الله ساق هذه الوظائف في حقٍ من اكتملت لديه الآلة في فهم النظم العربي عمومًا والنظم القرآني خصوصًا، فتلك الوظائف والآداب المذكورة، لن تغني فتيلاً عن الرجوع لكتب التفسير ومطالعة ما سطره أئمة التأويل وبخاصة سلف الأمة الصالح ونحثك على مطالعة التفاسير الأثرية والتربوية «كتسفير ابن كثير» وتفسير «السعدي»، ولا تحرم نفسك من تفيؤ «ظلال القرآن» فستغنم إن شاء الله.

الوصول إلى فهم صفات الله عزَّ وجلَّ إلا بوسيلة صفات نفسه، ولو لا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثري ولَتَلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسُبُحات نوره[١]. ولو لا تبييت الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تحليه حيث صار دكا[٢].

**الثاني: التعظيم للمتكلم:** فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله عزَّ وجلَّ غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** (٧٩)﴾ [الواقعة: ٧٩] وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا

(١) قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]

إذا كان يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش واستواء ربه عليه، والكرسي الذي وسع السموات والأرض، واستحضَرَ مشهد السموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعَلِمَ أن الخالق لجميعهاوالقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نِقْمته وسَطْوته، إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

**الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس:** قيل في تفسير: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [ مريم: ١٢ ] أي بجد واجتهاد، وأخذ بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره، وقيل لبعضهم: إذا

قرأت القرآن تحدّثُ نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أحدّث به نفسي! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية. وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن مايستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو متنزه ومتفرج، والذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها، فقد قيل إن القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياض.

فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديباج وتنزه في الرياض استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره.

**الرابع: التدبر:** وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سُنَّ الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن، قال علي

رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها.

وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئًا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها أمامُه فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال: الوسواس يعترينني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف فيّ الأسنَّة أحب إليَّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عزَّ وجلَّ، وأني كيف انصرف، فعدّ ذلك وسواسًا وهو كذلك، فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه، والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهمٍّ ديني، ولكن يمنعه به عن الأفضل.

وعن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية

يرددها وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ.. ﴾ [ المائدة: ١١٨ ] الآية وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴾ [ الجاثية: ٢١ ] الآية، وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾ [ يس: ٥٩ ] وقال بعضهم: إني لأفتح السورة فيوقفني بعضُها أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر، وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثواباً، وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولو لا أني أقطّع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها، وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها، وقال بعضهم: لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه، وكان هذا أيضاً

يقول: أقمت نفسي مقام الأجَرَاء فأنا أعمل مياومةً ومجامعةً ومشاهرةً ومسانهةً(١).

**الخامس: التفهّم:** وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزَّ وجلَّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عزَّ وجلَّ كقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (١١) ﴾ [الشورى: ١١] وكقوله تعالى: ﴿ **الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ** ﴾ [الحشر: ٢٣] فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للمُوفَّقين: وإليه أشار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن

---

(١) أي بأجر كل يوم وكل جمعة وكل شهر وكل سنة، يشير إلى ختماته في تلك الأزمنة.

يعطي الله عبداً فهماً في كتابه. وأما أفعاله تعالى مثل ذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عزَّ وجلَّ وجلاله إذا الفعل يدل علي الفاعل فتدل على عظمته، وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام: فإذا سمع منها كيف كُذّبوا وضُربوا وقُتل بعضهم. فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزَّ وجلَّ عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيء، وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزَّ وجلَّ وإراداته لنصرة الحق، وأما أحوال المكذبين؛ كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أُمهل فربما تدركُه النقمة وتنفُذ فيه القضية، وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه، ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** (١٠٩) ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأمه الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [محمد: ١٦] والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم.

**السادس: التخلي عن موانع الفهم**، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وحُجُب الفهم ثلاثة:

**أولها:** أن يكون الهم منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطانٌ وكُلٌّ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزَّ وجلَّ فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمُّله مقصوراً على مخارج الحروف

فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان ممن كان مطيعًا لمثل هذا التلبيس.

**ثانيها:** أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيَّده معتقدهُ عن أن يتجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفًا على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويتحرز عن مثله، ومثله من يقرأ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ [طه: ٥] وما يحتويه معنى الآية من علو الله عزَّ وجلَّ على كل مخلوقاته وهيمنته وتصرفه في كل الموجودات فيجيئه تقليد المعتقدات الموروثة في وجوب تنزيه الله عن الجهة فيُحرم من تجليّات تأمل صفة العلو والاستواء وهي من الصفات التي تكررت

في القرآن بغرض التنبيه على جلال الله وعظمته وحقيقة علوه على خلقه.

**ثالثها:** أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلياً في الجملة بهوىً في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة وهو أعظم حجابٍ للقلب وبه حُجب الأكثرون.

وكلما كانت الشهوات أشدّ تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قَرُبَ تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، وقد شرط الله عزَّ وجلَّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٨] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر: ١٣] ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

**السابع:** التخصيص وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمَرَ غيرُ مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبيّ ﷺ وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] فليقدّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما قصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى.

وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

[ الأنبياء: ١٠ ]، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [ النحل: ٤٤ ]، ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ [ محمد: ٣ ]، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [ الزمر: ٥٥ ]، ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ الجاثية: ٢٠ ]، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [ آل عمران: ١٣٨ ] وإذا قُصد بالخطاب جميعُ الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود، فماله ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [ الأنعام: ١٩ ] قال محمد بن كعب القُرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه، ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أَتَتْنَا من قِبَل ربنا عزَّ وجلَّ بعهود نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات ونُنْفِذُها في الطاعات والسنن المتبعات، وكان مالك ابن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن

القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض، وقال قتادة: لم يجالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢].

**الثامن: التأثر**، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حالٌ وَجَدٌ يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا يُرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونًا بشروط يقْصُرُ العارف عن نيلها كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢] ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر] ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطًا جامعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [ الأعراف : ٥٦ ] فالإحسان يجمع الكل، وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن.

ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كَثُر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نَصَبُه وشُغْلُه وقلت راحته وبطالته، وقال وهُيب بن الوَرْد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرقَّ للقلوب ولا أشدَّ استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره، فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة.

فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت؛ وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله صفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعاراً لعظمته.

وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عزَّ وجلَّ

كذكرهم لله عزَّ وجلَّ ولداً وصاحبة يغُضُّ الصوت وينكسر في باطنه حياءً من قبح مقالتهم. وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها.

وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفًا منها، ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ علي» قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١] رأيتُ عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: «حسبك الآن» رواه البخاري، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية، ولقد كان من الخائفين من خرّ مغشيًا عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات، فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيًا في كلامه. فإذا قال: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥] ولم يكن خائفًا كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿ **رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا**

آذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه ي قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود: ١٨] وفي قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف: ٣] وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء: ١] وفي قوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النجم: ٢٩] وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ [الحجرات: ١١] إلى غير ذلك من الآيات، وكان داخلاً في معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني التلاوة المجردة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف: ١٠٥] لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان مُعرضًا عنها، ولذلك قيل: إن من

لم يكن متصفًا بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى: مالك وكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي إن لم تتب إليَّ. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت، ولذلك قال يوسف ابن أسباط: إني لأهَمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التسبيح والاستغفار(١).

والمعرض عن العمل به أريد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه - وفي

(١) وليس هذا على الدوام وإلا أدى إلى هجر القرآن، ويحمل فعل يوسف على المجاهدة بالتسبيح والاستغفار حتى يتأهل لتحمل تبعة القراءة، وهذا واضح ولا ريب، فإن اتّكأ على فعلة يوسف بن أسباط بطالٌ فهَجَرَ القرآن وردَّد هذه الحجة فهو نصيبه من بطالته وحرمانه.

بعض الروايات - فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه، قال تعالى: ﴿ الَّذين إذا ذُكر اللَّهُ وجلتْ قُلُوبُهُمْ وإذا تُليتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زادتْهُمْ إيمانا وعلىٰ ربِّهمْ يتوكَّلُون (٢) ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال ﷺ: «إن أحسن الناس صوتًا بالقرآن إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى» (١) وقال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانيًا فانتهرني وقال: جعلت القرآن عليّ عملاً اذهب فاقرأ على الله عزّ وجلّ، فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك. وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال، فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفًا من الصحابة(٢) لم يحفظ منهم القرآن إلا ستة اختلف في اثنين منهم، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَمن يَعْمَلْ مثْقَال ذرَّةٍ خيْرًا يرهُ (٧) ومن يعْملْ مثْقَال ذرَّةٍ شرًّا يرهُ (٨) ﴾ [الزلزلة:

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «أخبار الصحابة» وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٣).

(٢) بل مائة ألف وأكثر كما قال أبو زرعة رحمه الله.

٧ ، ٨ ] قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: «انصرف الرجل وهو فقيه» رواه أبو داود والحاكم وصححه، وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي منَّ الله عزَّ وجلّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية.

فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [ طه: ١٢٤ ] وبقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [ طه: ١٢٦ ] أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

**التاسع: الترقّي:** وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع

الكلام من الله عزَّ وجلَّ لا من نفسه، فدرجات القرآن ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عزَّ وجلَّ واقفًا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير: السؤال والتملق والتضرعَ والابتهال، الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عزَّ وجلَّ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسان فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم، الثالثة: أن يري في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره(١). وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

**العاشر: التبّري:** وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته

---

(١) ودليل هذه الدرجات قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» متفق عليه.

والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا تلا بآيات الوعيد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوق إلى أن يلحقه الله عزَّ وجلَّ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصّرين شهد على نفسه هناك، وقدّر أنه المخاطب خوفًا وإشفاقًا.

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني استغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر. فتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقيل ليوسف ابن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: استغفر الله عزَّ وجلَّ من تقصيري سبعين مرة، فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيتُه سببَ قربه، فإن من شهد البعد في القرب لُطِف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مُكِر به في الأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه.

ومهما كان مشاهدًا نفسه بعين الرضا صار محجوبًا

بنفسه عن الله )[١]. وكان الشافعي يقول:

أحب الصالحين ولست منهم    لعلي أن أنال بهم شفاعةْ
وأكره من تجارته المعاصي    وإن كنا سواءً في البضاعةْ

وكان يقول أيضًا رحمه الله:

فعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ    كما أن عين السخط تبدي المساويا

(١) من الإحياء بتصرف واختصار (١/ ٢٨٠ -٢٨٨).

opeikandl.com

# وسائل تحصيل ثمرة الدعاء

**الأول:** أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر والجمعة من أيام الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل.

قال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [ الذاريات: ١٨ ]، وقال ﷺ: « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عزَّ وجلَّ: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » متفق عليه، وقيل إن يعقوب عليه السلام إنما قال: « سوف أستغفر لكم ربي » ليدعو في وقت السحر.

فقيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤَمّنون خلفه فأوحى الله عزَّ وجلَّ إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء.

**الثاني:** أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالي وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات

المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصفوف، وقال ﷺ: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه، وقال ﷺ أيضاً: «الصائم لا ترد دعوته» رواه الترمذي وحسنه، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذْ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المهوّشات.

ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عزَّ وجلَّ فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يُطَّلعُ عليها، وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبيّ ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء» رواه مسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الرجوع فعظّموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قَمِنٌ[1] أن يستجاب لكم» رواه مسلم.

---

(١) قمن: جدير.

**الثالث:** أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يُرى بياضُ إبطيه أو يرفع يديه قبالة وجهه أو نحو ذلك أو يرفع أصبعه السبّابة، وعن جابر بن عبد الله ﵄ أن رسول الله ﷺ: «أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس» رواه مسلم، وقال سلمان ﵁: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حييٌّ كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرًا» رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وعن أنس ﵁ أنه ﷺ: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء» رواه مسلم، وعن أبو هريرة ﵁ أنه ﷺ مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعية السبابتين فقال ﷺ: «أَحِّدْ أَحِّدْ» رواه النسائي وابن ماجة، أي اقْتَصِرْ على الواحدة، وقال أبو الدرداء ﵁: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تُغَلَّ بالأغلال وقال ابن عباس ﵄ كان ﷺ: «إذا دعا ضم وجعل بطونهما مما يلي وجهه» أخرجه الطبراني بإسناد فيه ضعف، فهذه هيئات اليد، ولا يرفع بصره إلى السماء، قال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارهم» رواه مسلم.

**الرابع:** خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما ورد أن أبا

موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبَّر وكبَّر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبيُّ ﷺ: «يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصمَّ ولا غائب» متفق عليه، وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تجْهر بصلاتك ولا تُخافت بها﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بدعائك، وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيًا (٣)﴾ [مريم: ٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخُفية﴾ [الأعراف: ٥٥].

**الخامس:** أن لا يتكلف السَّجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع، والتكلف لا يناسبه، قال ﷺ: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء» رواه أبو داود وابن ماجة، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا ربَّكُمْ تضرُّعًا وخُفْيةً إنَّهُ لا يُحبُّ الْمُعْتدين (٥٥)﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل معناه التكلف للأسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة، فإنه قد يتعدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كلُّ أحد يحسن الدعاء، ولذلك روي عن معاذ رضي الله عنه: إن العلماء يُحْتاج إليهم في الجنة إذا يقال لأهل الجنة تمنوا فلا

يدرون كيف يتمنَّون حتى يتعلموا من العلماء، وفي الخبر: سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطُّهور، ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له: أَعَلَى الله تبالغ؟ أشهد لقد رأيت حبيبًا العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللَّهُمَّ اجعلنا جيّدين، اللَّهُمَّ لا تفضحنا يوم القيامة، اللَّهُمَّ وفقنا للخير، والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكلٌ يعرف بركة دعائه.

وقال بعضهم: ادع بلسان الذّلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

ويقال إن العلماء لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة، فإن الله تعالى، لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك.

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلَّفة كقوله ﷺ: «**أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركَّع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد**» رواه الترمذي وقال:

غريب، وأمثال ذلك، فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عزَّ وجلَّ.

**السادس:** التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

**السابع:** أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه. قال رسول الله ﷺ: «**لا يقل أحدكم إذا دعا اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مُكْرِه له**» متفق عليه، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليُعظِم الرغبة فإن الله لا يَتعاظَمُه شيء**» رواه ابن حبان، وقال ﷺ: «**ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ**» رواه الترمذي وقال: غريب، وقال سفيان ابن عيينةً: لا يمنعَّن أحدكم من الدعاء ما يعلمُ من نفسه فإن الله عزَّ وجلَّ أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال:

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) ﴾ [الحجر: ٣٦، ٣٧].

**الثامن:** أن يُلِحَّ في الدعاء ويكرره ثلاثًا قال ابن مسعود: «**كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا**» رواه مسلم، وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة لقوله ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل فيقول قد دعوتُ فلم يُستجب لي، فإذا دعوتَ فاسأل الله كثيرا فإنك تدعوا كريمًا**» متفق عليه، وقال بعضهم: إني سألت الله عزَّ وجلَّ منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة، سألت الله أن يوفقني لترك ما لا يعنيني.

**التاسع:** أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزَّ وجلَّ فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقوله: سبحان ربي العليّ الأعلى الوهاب**» رواه أحمد والحاكم فيه ضعف، قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبيَّ ﷺ فإن الله عزَّ وجلَّ يقبل الصلاتين وهو أكرم أن يدع ما بينهما.

**العاشر:** وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عزَّ وجلَّ بكُنْه الهمة فذلك هو السبب القريب في الإجابة، فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله ﷺ فخرج موسى ببني إسرائيل يستقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يُسقَوا، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام، فقال موسى: يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً! فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأَجْمُعِكُم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث. وقال سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قُحِطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم بأقدامكم حتى تَحْفَى رُكَبُكُم وتبلغَ أيديكم عنان السماء وتَكِلَّ ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعيًا ولا أرحم لكم باكيًا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمُطروا من يومهم.

وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحطٌ فخرجوا مراراً فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلي نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة وترفعون إلي أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً.

وقال أبو الصدّيق الناجي: خرج سليمان عليه السلام يستقي فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللَّهُمَّ إنَّا خلقٌ من خلقكَ ولا غنى بنا عن رزقك فلا تُهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءةَ؟ فقالوا: اللَّهُمَّ نعم، فقال: اللَّهُمَّ إنا قد سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؛ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا فقال: إنكم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجارة.

ورُوي أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام: من أصاب منكم ذنباً فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد، فقال له عيسى عليه السلام: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما عملت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة؛ فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال: فدعا فتجللت السماء سحاباً ثم صبَّت فسُقوا.

وقال يَحيى الغسّاني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نَعْتِقَ أَرِقَّاءَك اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا، وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا.

وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث فخرجنا نستسقي

فإذا نحن برجل بين المقابر فنظر إليَّ فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أو بُعْثِرَ ما في القبور؟ فقلت: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي، فقال: يا عطاء بقلوب أَرْضِيَّة أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية فقال: هيهات يا عطاء، قل للمُتَبَهْرِجين لا تَتَبهْرَجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطَرْفٍ وقال: إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك إلا ما سقيتنا ماء غَدَقًا فُراتًا تحيي العباد وتروي به البلاد؛ يا من هو على كل شيء قدير. قال عطاء: فما استَتَمّ الكلام حتى أَرْعَدَت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القِرَب.

وقال ابن المبارك: قَدِمتُ المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذْ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتَّزَرَ بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أَخْلَقَتِ الوجوهَ عندك كثرةُ الذنوب ومساوي الأعمال وقد حبستَ عنا غيثَ السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليمًا ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعةَ، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء

بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل فقال: ما لي أراك كئيباً؟ قلت أمر سَبَقنا إليه غيرُنا فتولاه ودنَنَا، وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشيًا عليه. ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك ﷺ وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تَدَعَ الكبير بدار مَضْيَعَةٍ فقد ضَرَعَ الصغير ورقَّ الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال»[1].

(١) «إحياء علوم الدين» بتصرف واختصار (١/ ٣٠٤-٣٠٩).